ورقة بحثية

إشكالية العذاب والخلود في النار

تارة يكون الإشكال على أصل العذاب، وأخرى على العذاب الخالد والمؤبد، والإشكال على الأول مفاده أن الله تعالى لا يعذب خلقه، وهذا النفي للعذاب له عدة صياغات، منها: أن الله تعالى أرحم الراحمين وأن رحمته وسعت كل شيء، ولا يناسب شأن هذه الرحمة العظيمة -التي لا يمكن تصور حدودها- ذلك العذاب الهائل الذي ذكر في بعض الآيات، من قبيل قوله تعالى: ﴿**فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ. يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ. وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ. كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ**﴾ (١). أو قوله تعالى: ﴿**إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا**﴾ (٢) ﴿**وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا. إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا**﴾ (٣).

ومن هنا لا بد أن تحمل هذه الآيات على أن المراد الواقعي منها هو مجرد التخويف والتهديد ليتحقق الردع عن الشرك والمعاصي، وله شبيه في حياتنا العادية عندما يهدد ويتوعد الآباء أبناءهم بالعقاب لكن في الواقع لا يقصدون العقاب على نحو الحقيقة بل هو مجرد تهديد، أو أنهم كانوا يقصدون ذلك لكن فيما بعد لا ينجزون وعودهم بالعقاب والإيذاء انسجاماً مع غريزة المحبة والعاطفة.

وجواب هذا النمط من الإشكال يكفي في دحضه هو ذات القرآن الذي صرح أن هذه الآيات إنما هي على نحو الحقيقة وليس مجرد تخويف وتهديد، يقول تعالى: ﴿**ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ**

---

(١) الحج ١٩-٢٢.
(٢) الكهف: ٢٩.
(٣) الفرقان: ١٢.

ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ. وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ. قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ (٤).

على أن الله تعالى مع رحمته الواسعة لا ينافيه أن يكون ثمة وعد منه حقيقياً للذين عصوا وأشركوا وكفروا، بل مقتضى رحمته أن يكون الوعد بالعذاب للعاصين على نحو الحقيقة، فإبعادهم بالعذاب هو لصالح جنس الإنسان، باستقرار النظام وتحقق الكمال له.

وقياس الرحمة الإلهية على الرحمة البشرية قياس مع الفارق، إذ لو تسنى للبشر أن يحيطوا بالأشياء كما يحيط الله تعالى بها، لا ضمان لبقاء ذات أحكامهم وسلوكهم.

ومع غض الطرف عن كل ذلك، يقال في جواب هذا الإشكال ابتداء: إن الله تعالى الله كما كتب على نفسه الرحمة فقد كتب على نفسه العدل والإنصاف، قال: (**أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ**) (٥). وفي هذا السياق ورد في فقرات من دعاء كميل المعروف: "فباليقين أقطع، لولا ما حكمت به من تعذيب جاحديك، وقضيت به من إخلاد معانديك، لجعلت النار كلها برداً وسلاماً، وما كان لأحد فيها مقرا ولا مقاما، لكنك تقدست أسماؤك أقسمت أن تملأها من الكافرين من الجنة والناس أجمعين، وأن تخلد فيها المعاندين"(٦).

ويمكن صياغة النفي المتقدم للعذاب بأن يقال إن الله تعالى كيف يعذب الكافر وهو يعلم -عندما خلقه- أنه سوف لن يحيد عن الكفر، فهل خلقه ليدخل جهنم ويعذبه؟ كيف والله تعالى غني عن عذاب الكافر، وهو القائل: (**مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا**) (٧).

والجواب التقليدي لهذا النمط من الإشكال هو أن الله تعالى لم يخلق الإنسان بوصف الكفر، بل خلق ذات الإنسان الذي فيه نزعة الخير والشر، وأوضح له الطريق ومنحه العقل والقدرة على تمييز الخير من الشر. وهذا الإنسان هو بإرادته قد اختار الكفر فاستحق العذاب.

---

(٤) يونس ٥٢-٥٣.

(٥) السجدة: ١٨.

(٦) مصباح المتهجد، الشيخ الطوسي، ص ٨٤٨.

(٧) النساء: ١٤٧.

هذا، وقد لا يكفي ذلك في الجواب، فنزيد: أن خلقه يعني إخراجه من العدم إلى الوجود، والوجود خير، وهو أفضل من العدم، فلو افترضنا أن الإنسان قبل خلقه كان روحاً أو شيئاً ما في عالم الذر، فلو لم يخلقه الله تعالى بذريعة أنه سيختار الكفر على الإيمان لاحتج يوم القيامة على الله تعالى أنه لماذا لم يخلقه؟

ويمكن أيضاً أن يصاغ النفي المتقدم بصياغة ثالثة حاصلها: أن الله كيف يعذب الكافر وهو لم يهده، أيصح العذاب قبل الهداية؟ وهذا الإشكال يختص بالكافرين الذي لم تصل لهم الهداية بسبب رسول أو نبي، ولم يرشدهم العقل إلى نور الإيمان، كمن ولد مشركاً وعاش كذلك. وهو في الجملة إشكال صحيح، فلا يعذب الله تعالى الكافر بعد موته فيما لم تقم ليه الحجة على الإيمان. إلا أن يدعى أن الله تعالى يرشد كل إنسان خلقه إلى الهداية بنور العقل، فلا يموت هذا الكافر ما لم يتحقق الرشد من الله والهداية، فإن استمر بالكفر استحق العذاب. لكنها دعوى تحتاج إلى إثبات.

هذا ما يخص أصل العذاب للعاصي والكافر، أما العذاب المستمر والخالد فهو أمر آخر، فثمة إشكال مفاده: أن الله تعالى رحمن رحيم، ورحمته وسعت كل شيء، كما أنه عادل لا يضاهيه في ذلك أحد، وقد ورد في نصوص صريحة الخلود في النار، فكيف ذلك مع أن الذنب محدود بعدد سنين الدنيا القليلة، وربما لا يتجاوز ساعة في حساب الزمان عند الله تعالى؟ ألا يتناقض ذلك مع رحمته وعدالته؟ كيف يحكم بالأبدية الى ما لا نهاية من العذاب بسبب ذنب محدود؟ ولا ينفع الجواب بأن العذاب هو بقدر السيئة لكنه موزعاً على دوام بقائهم في النار، قال تعالى: "**وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مثلها.**

وقد يجاب أولاً: بأنه لا خلود في العذاب، وكل ما دل على الخلود فهو يعني اللبث الطويل وقد يخرج لاحقاً. وثانياً الأجوبة منسوب لأحد العارفين: العذاب بالنار يكون محدداً ثم يتحول العذاب الى التذاذ واستمتاع، حيث نجد مثل ابن عربي يقول: " وأما أهل النار فمآلهم إلى النعيم، ولكن في النار إذ لا بد لصورة النار بعد انتهاء مدة العقاب أن تكون برداً وسلاماً

على من فيها، وهذا نعيمهم، فنعيم أَهل النار بعد استيفاء الحقوق نعيم خليل الله حين أُلقِيَ في النار فإنه عليه السلام[٨].

طبعا يمكننا إضافة جوابين أحدهما للعلامة الطباطبائي، مفاده: أن الخلود لازم تكويني للعاصي الكافر. والثاني: يستفاد من كلام الجهم بن صفوان: من أن الجنة والنار لا خلود فيهما، لان الجنة في ذاتها والنار يفنيان ولا يدومان، ودليل ذلك قوله تعالى: ("فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق. خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك إن ربك فعال لما يريد) يتبع....

أحد أجوبة شبهة الخلود قد يقال في الجواب: أن الخلود يشمل من علم الله تعالى دوام نيته على الكفر أو الذنب، بحيث لو أتيحت له الفرصة إلى ما لا نهاية من العمر فإنه سوف يكون مشركاً أو عاصياً. (**وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ**)[٩]. فالعقوبة جزاء على النية لا على الوقت، فلو كان عاش إلى الأبد في الدنيا لأفسد إلى الأبد مثل الشيطان، فكان الجزاء وفاقا.

تفسير الميزان، السيد الطباطبائي، ج ١ ص ٤١٢

مسألة انقطاع العذاب والخلود مما اختلف فيه أنظار الباحثين من حيث النظر العقلي ومن جهة الظواهر اللفظية.

والذي يمكن أن يقال: أما من جهة الظواهر، فالكتاب نص في الخلود، قال تعالى: (**وما هم بخارجين من النار الآية**) والسنة من طرق أئمة أهل البيت مستفيضة فيه، وقد ورد من غير طريقهم أخبار في الانقطاع ونفى الخلود، وهي مطروحة بمخالفة الكتاب.

وأما من جهة العقل؛ فقد ذكرنا فيما تقدم من البحث في ذيل قوله تعالى: (**واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا**)، أن الاستدلال على خصوصيات ما جاء به الشرع في المعاد بالمقدمات الكلية العقلية غير مقدور لنا؛ لأن العقل لا ينال الجزئيات، والسبيل فيه تصديق ما جاء به النبي الصادق من طريق الوحي للبرهان على صدقه.

---

(٨) فصوص الحكم، ابن عربي، ج ١ ص ١٧٠.

(٩)

وأما النعمة والعذاب العقليان الطارئان على النفس من جهة تجردها وتخلقها بأخلاق وملكات فاضلة أو رديئة أو اكتسائها وتلبسها بأحوال حسنة جميلة أو قبيحة، فقد عرفت أن هذه الأحوال والملكات تظهر للنفس بما لها من صورة القبح أو الحسن، فتنعم بما هي حسنة منها، إن كانت ذاتها سعيدة، وتعذب بما هي قبيحة مشوهة منها، سواء كانت ذاتها سعيدة أو شقية.

وأن ما كانت من هذه الصور صورا غير راسخة للنفس وغير ملائمة لذاتها، فإنها ستزول، لأن القسر لا يكون دائمياً ولا أكثرياً، وهذه النفس هي النفس السعيدة ذاتا، وعليها هيئات شقية رديئة ممكنة الزوال عنها كالنفس المؤمنة المجرمة، وهذا كله ظاهر.

وأما الهيئات الرديئة التي رسخت في النفس حتى صارت صورا أو كالصور الجديدة تعطي للشيء نوعية جديدة كالإنسان البخيل الذي صار البخل صورة لإنسانيته، كما صار النطق لحيوانيته الصائرة به نوعا جديدا تحت الحيوان، فالإنسان البخيل أيضا نوع جديد تحت الإنسان، فمن المعلوم أن هذا النوع نوع مجرد في نفسه دائمي الوجود، وجميع ما كان يصدر عنه بالقسر حال عدم الرسوخ فيعذب به ويذوق وبال أمره، فهي تصدر عن هذا النوع بإذن الله من غير قسر إلا أنها لما كانت صادرة عن نوعيته من غير قسر فهي دائمة من غير زوال، بخلاف ما لو كانت حاصلة بالقسر، ومثل هذا الإنسان المعذب بلوازم ملكاته من وجه مثل من ابتلى بمرض "الماليخوليا" أو الكابوس المستمر فإنه لا يزال يصدر عن قوة تخيله صور هائلة أو مشوهة يعذب بها وهو نفسه هو الذي يوجدها من غير قسر قاسر ولو لم تكن ملائمة لطبعه المريض ما أوجدها، فهو وإن لم تكن متألما من حيث انتهاء الصدور إليه نفسه لكنه معذب بها من حيث أن العذاب ما يفر منه الإنسان إذا لم يبتل به بعد، ويحب التخلص عنه إذا ابتلى به، وهذا الحد يصدق على الأمور المشوهة والصور غير الجميلة التي تستقبل الإنسان الشقي في دار آخرته ، فقد بان أن العذاب خالد غير منقطع عن الإنسان الشقي الذي لذاته شقوة لازمة.

وقد استشكل هاهنا بإشكالات واضحة السقوط بينة الفساد:

أن الله سبحانه ذو رحمة واسعة غير متناهية فكيف يسع رحمته أن يخلق من مصيره إلى عذاب خالد لا يقوم له شيء؟

أن العذاب إنما يكون عذابا إذا لم يلائم الطبع فيكون قسرا ولا معنى للقسر الدائم، فكيف يصح وجود عذاب دائم؟

أن العبد لم يذنب إلا ذنبا منقطع الآخر فكيف يجازى بعذاب دائم؟

أن أهل الشقاء لا يقصر خدمتهم لنظام التكوين عن خدمات أهل السعادة، ولولاهم لم تتحقق سعادة لسعيد فما هو الموجب لوقوعهم في عذاب مخلد؟

أن العذاب للمتخلف عن أوامر الله ونواهيه انتقام، ولا يكون الانتقام إلا لجبر النقص الذي أورده العاصي الظالم على المنتقم المقتدر، ولا يجوز ذلك على الله تعالى فهو الغني المطلق، فكيف يجوز منه العذاب وخاصة العذاب المخلد؟

فهذه وأمثالها وجوه من الإشكال أوردوها على خلود العذاب وعدم انقطاعه.

الجواب الإجمالي

وأنت بالإحاطة بما بيناه من معنى خلود العذاب تعرف أنها ساقطة من رأس ، فإن العذاب الخالد أثر وخاصة لصورة الشقاء الذي لزمت الإنسان الشقي فتصور ذاته بها بعد تمامية الاستعداد الشديد الذي حصل في ذاته القابلة لها بواسطة الأحوال العارضة لها المنتهية إلى اختياره، واشتداد الاستعداد التام هو الذي يوجب في جميع الحوادث إفاضة الصورة المناسبة لسنخ الاستعداد، فكما لا يجوز السؤال عن علة تحقق الأفعال الإنسانية بعد ورود الصورة الإنسانية على المادة لوجود العلة التي هي الصورة الإنسانية، كذلك لا معنى للسؤال عن لمية ترتب آثار الشقاء اللازم، ومنها العذاب المخلد بعد تحقق صورة الشقاء اللازم، المنتهية إلى الاختيار؛ فإنها آثارها وخواصها فبطلت السؤلات جميعا، فهذا هو الجواب الإجمالي عنها.

الجواب التفصيلي

وأما تفصيلا: فالجواب عن الأول:

أن الرحمة فيه تعالى ليس بمعنى رقة القلب والإشفاق والتأثر الباطني، فإنها تستلزم المادة - تعالى عن ذلك - بل معناها العطية والإفاضة لما يناسب الاستعداد التام الحاصل في القابل، فإن المستعد بالاستعداد التام الشديد يحب ما يستعد له ويطلبه ويسأله بلسان استعداده؛ فيفاض عليه ما يطلبه ويسأله، والرحمة رحمتان: رحمة عامة ، وهي إعطاء ما يستعد له الشيء

ويشتاقه في صراط الوجود والكينونة ، ورحمة خاصة ، وهي إعطاء ما يستعد الشيء في صراط الهداية إلى التوحيد وسعادة القرب وإعطاء صورة الشقاء اللازم الذي أثره العذاب الدائم للإنسان المستعد له باستعداده الشديد لا ينافي الرحمة العامة بل هو منها ، وأما الرحمة الخاصة فلا معنى لشمولها لمن هو خارج عن صراطها، فقول القائل : إن العذاب الدائم ينافي الرحمة إن أراد به الرحمة العامة فليس كذلك، بل هو من الرحمة العامة، وإن أراد به الرحمة الخاصة فليس كذلك لكونه ليس موردا لها، على أن الإشكال لو تم لجرى في العذاب المنقطع أيضا حتى أنواع العذاب الدنيوي، وهو ظاهر.

والجواب عن الثاني: أنه ينبغي أن يحرر معنى عدم ملائمة الطبع، فإنه تارة بمعنى عدم السنخية بين الموضوع والأثر الموجود عنده وهو الفعل القسري الذي يصدر عن قسر القاسر، ويقابله الأثر الملائم الذي يصدر عن طبع الشيء إذا اقترن به آفات ثم رسخت فيه فصارت صورة في الشيء، وعاد الشيء يطلبه بهذا الوجود وهو في عين الحال لا يحبه، كما مثلنا فيه من مثال "الماليخوليائي"، فهذه الآثار ملائمة لذاته من حيث صدورها عن طبعه الشقي الخبيث، والآثار الصادرة عن الطباع ملائمة ، وهي بعينها عذاب لصدق حد العذاب عليها لكون الشيء لا يرتضيها، فهي غير مرضية من حيث الذوق والوجدان في عين كونها مرضية من حيث الصدور .

والجواب عن الثالث: أن العذاب في الحقيقة ترتب أثر غير مرضي على موضوعه الثابت حقيقة، وهو صورة الشقاء، فهذا الأثر معلول الصورة الحاصلة بعد تحقق علل معدة، وهي المخالفات المحدودة، وليس معلولا لتلك العلل المعدة المحدودة حتى يلزم تأثير المتناهي أثراً غير متناه وهو محال، ونظيره أن عللا معدة ومقربات معدودة محدودة أوجبت أن تتصور المادة بالصورة الإنسانية فيصير إنسانا يصدر عنه آثار الإنسانية المعلولة للصورة المذكورة، ولا معنى لان يسئل ويقال : أن الآثار الإنسانية الصادرة عن الإنسان بعد الموت صدورا دائميا سرمديا لحصول معدات محدودة مقطوعة الأمر للمادة فكيف صارت مجموع منقطع الآخر من العلل سببا لصدور الآثار المذكورة وبقائها مع الإنسان دائما لان علتها الفاعلة - وهي الصورة الإنسانية موجودة معها دائما على الفرض، فكما لا معنى لهذا السؤال لا معنى لذلك أيضا.

والجواب عن الرابع: أن الخدمة والعبودية أيضا مثل الرحمة على قسمين: عبودية عامة، وهو الخضوع والانفعال الوجودي عن مبدأ الوجود، وعبودية خاصة وهو الخضوع والانقياد في صراط الهداية إلى التوحيد ، ولكل من القسمين جزاء يناسبه وأثر يترتب عليه ويخصه من الرحمة ، فالعبودية العامة في نظام التكوين جزائه الرحمة العامة ، والنعمة الدائمة والعذاب الدائم كلاهما من الرحمة العامة ، والعبودية الخاصة جزائه الرحمة الخاصة ، وهي النعمة والجنة وهو ظاهر ، على أن هذا الإشكال لو تم لورد في مورد العذاب المنقطع الأخروي بل الدنيوي أيضاً.

والجواب عن الخامس: أن العذاب الدائم مستند إلى صورة الشقاء الذي في الإنسان كما عرفت، وإلى الله سبحانه بالمعنى الذي يقال: في كل موجود: إنه مستند إليه تعالى لا بمعنى الانتقام وتشفي الصدر المستحيل عليه تعالى، نعم الانتقام بمعنى الجزاء الشاق والأثر السيئ الذي يجزي به المولى عبده في مقابل تعديه عن طور العبودية، وخروجه عن ساحة الانقياد إلى عرصة التمرد والمخالفة مما يصدق فيه تعالى لكن لا يستلزم كون العذاب انتقاما بهذا المعنى إشكالا البتة. على أن هذا الإشكال أيضا لو تم لورد في مورد العذاب الموقت المنقطع في الآخرة بل في الدنيا أيضا.